مجلة عصور الجديدة- فصلية مصنفة ج- المجلد 11- العدد 2 (جوان) 1442هـ/2021م
EISSN 2600-6324 ISSN 2170-1636
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/178

تاهرت: من سقوط العاصمة إلى زوال العمران (296-620هـ/908-1223م)

Tahert, from the fall of the capital to the disappearance of its urbanism (908-1215 A.D)

اسم ولقب المؤلف: إلياس حاج عيسى- Hadj Aissa ilyes صص82-100
الدرجة والعنوان المهني: أستاذ محاضر أ- جامعة ابن خلدون- تيارت. (الجزائر)
البريد الإلكتروني: ilyes.hadjaissa@univ-tiaret.dz

تاريخ استقبال المقال: 2021/03/03 تاريخ المراجعة: 2021/04/04 تاريخ القبول: 2021/05/07

الملخص: عادة ما يكون الحديث عن تاهرت في العصر الوسيط مقترنا بفترة حكم الرستميين (160-296هـ) نظراً للشهرة التي حققتها أثناء حكمهم اقتصاديا وفكريا واجتماعيا، ولا نكاد نجد بالمقابل دراسات علمية عن تاريخ المدينة بعد زوال الامامة الرستمية،* واللافت في الأمر أن تاهرت استمرت تقاوم الزوال 316 سنة بعد سقوط الرستميين (من 296 إلى 612هـ/908-1215م)، وهي فترة زمنية طويلة تستحق عناء البحث بالرغم من شحّ المعلومات. ستناقش هذه الورقة البحثية المسار التاريخي للمدينة في هذه الفترة الزمنية، وستطرح إشكاليات، منها: استمرار تجاهل المصادر لتاريخ المدينة بعد انتهاء تبعيتها للرستميين الإباضيين، مصير المكوّنات الاجتماعية لتاهرت الرستمية؛ موقع تاهرت الجغرافي ودلالات التنافس الفاطمي الصنهاجي من جهة، والأموي الزناتي من جهة ثانية، عليها؛ ونتسائل إن كانت المدينة قد دفعت الثمن بسبب موقعها الاستراتيجي بين المعسكرين. ونستحضر هنا قول مؤسّسها عبد الرحمن بن رستم حسبما نقله البكري في مسالكه: "هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبداً". ونسعى إلى رصد محطّات تخريب عمران المدينة إلى غاية زوالها. وإن كانت المصادر قد نقلت لنا وجها مشرقا لتاهرت في العهد الرستمي، إلاّ أن معلوماتها غير مقنعة حول نهايتها المأساوية سوى قول ابن خلدون: "واستبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها."

الكلمات المفتاحية: تاهرت؛ زناتة؛ ابن خلدون؛ المغرب الأوسط؛ صنهاجة؛ الفاطميين؛ الرستميين؛ محمد بن خزر؛ الأمويون؛ الاندلس.

ABSTRACT: It is usually to connect the name of Tahert to the time of the Rustumides (160-296 H), mainly due to the economic and social development and to its elaborated architecture planning has that the city known at this period. The studies concerning the fate of the city after the Rustumides remain rare, knowing that the city resisted to the disappearance in the comming 316 years, which is a fairly long period that requires a study despite the lack of sources and mmedieval accounts. This is what I want to establish in this communication, which raises the issues concerning the fate of the city after the Ibadhite-Rustumide rule especially about the social field, and moreover , the both Fatimid – Sanhajide and Ommayade-Zenete conflict to acquire the strategic site and position of the city and we will discuss its importance to be the real raison of the this concurrency that IbnKhaldun has confirmed that " this land will be in war and blood forever" , for this aim, I will follow these events that have contributed to the disappearance of urban monuments of this city as IbnKhaldun attested to destroyed during its last times and had been conquered, even that sources and ancient accounts had transmitted to us a brilliant image of the city during the Rustumid rule..

Keywords: Zenata; Ibn Khaldun; Middle Maghreb; Sanhaja; Fatimids; Rostoumids; Muhammad ibn Khazar; The Umayyads; Andalus.

المقدمة: أثار انتباهنا ونحن نطالع حول تاهرت، قلّة الدراسات حول تاريخ المدينة بعد سقوط الدولة الرستمية، والمفارقة الأبرز، هي الفترة الزمنية الطويلة التي عاشتها المدينة بعد سقوط الرستميين، إذ تشير المصادر أن المدينة هجرها أهلها نهائيا سنة 612هـ/1215م، وذكرتها إحدى المصادر كمدينة فارغة بها أطلال في سنة 620هـ/1223م، بما يفيد أنها ظلت موجودة 324سنة، بعد سقوط حكم الرستميين، لكن أليس غريبا حقا، أن تنعدم دراسات تاريخية تغطي هذا المجال الزمني الطويل. بالمقابل نرجّح أن الدوافع التي صرفت الباحثين- ربما- لعدم الالتفات إلى هذه الحقبة الزمنية من تاريخ المدينة، هي قناعتهم "أن تيهرت لم تر بعد الرستميين أي ازدهار، ولم تعرف أي استقرار، فعاشت في ثورات وحروب متتالية، قضت على عمرانها الرستمي"[1].

نضيف إلى هذه المنطلقات، بعض الصعوبات الموضوعية، وهي إشكالية الثقة في المصادر التي تعرضت لتاهرت بالوصف، كان بالإمكان الاستفادة منها بشكل أحسن، خاصة

أن بعضها معاصر لوجود المدينة في أطوارها المختلفة، والبعض الآخر جاء بعد زوالها "المفترض" في 620هـ/1223م، حسب ابن خلدون، لكن تشابه الأوصاف وتكرارها يقلّص من تنوع المعلومات حول المدينة، وكثيرا ما وصفت المصادر التي عاش أصحابها بعد 620هـ/1223م، المدينة وكأنها في العهد الرستمي أو قريبة عهد منه، بالنظر إلى حجم المدح والقيمة الحضارية الممنوحة لها. دون التنبيه إلى فارق الزمن.

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى لمّ شمل المعلومات المتناثرة حول تاريخ المدينة بعد الرستميين، ونروم إعادة بناء سياق تاريخي نسعى أن يكون مقنعا، ويجيب عن التساءل الأبرز: كيف انتقلت تاهرت من عاصمة لدولة إلى أطلال، في رحلة الثلاثة قرون؟

1- تاهرت في المصادر الوسيطة: كانت تهرت عند بعض الجغرافيين القدامى إقليم من أقاليم بلاد المغرب، كقول الاصطخري أن بلاد المغرب ينقسم إلى غربي وهو الاندلس وشرقي، ويتكون من برقة، افريقية، تاهرت، طنجة، السوس، زويلة.[2] وسنكتفي بأهم أوصاف المؤرخين والجغرافيين للمدينة[3] مع الأخذ بعين الاعتبار التسلسل الزمني للمصادر، بداية باليعقوبي المتوفي سنة 284 هـ/897م، ونهاية بحسن الوزان المتوفي في حدود 957 هـ/1550م، والمعلومات التي تقدمها المصادر، هي إما وصف عمراني لتاهرت وما جاورها، أو هي أحداث تاريخية تتعلق بالمدينة.

1-1 اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب (ت.284هـ/ 897م): وصفها بالمدينة العظمى، وأنها جليلة المقدار عظيمة الأمر، وذكر أنها تسمّى بعراق المغرب، وأن بها أخلاط من الناس، نسبها إلى قوم من الفرس سماهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي. وكان اليعقوبي دقيقا عندما أشار إلى حكم عبد الرحمن أولا لشؤون افريقية قبل تأسيس الدولة، ويرتبط وصف اليعقوبي بفترة حكم محمد بن أفلح، وقال إن تاهرت في عهده يتصل بها بلد عظيم ينسب إليها، وهي في طاعته، كما ذكر المنفذ البحري الذي ترسو في مراكب تاهرت وهو عبارة عن حصن يقال له مرسى فرّوخ. ومن المواقع القريبة من المدينة ذكر مملكة لرجل من هوارة يقال له ابن مسالة الهواري، ومملكته تسمى الجبل.[4]

يعتبر اليعقوبي من المصادر الموثوقة لأنه زار المنطقة، ولأنه عاصر تاهرت في فترة ازدهارها، وذكر معلومات متطابقة مع معلومات ابن الصغير، عندما وظّف عبارات: (عراق المغرب؛ بها أخلاط من الناس) كما ذكر من المواقع القريبة من تاهرت مملكة لرجل من

هوارة تسمى الجبل، وهي بالتأكيد قلعة هوارة[5] التي ذكرتها بعض المصادر كصاحب الاستبصار. وتكمن قيمة اليعقوبي أنه من المصادر القليلة المعاصرة للدولة الرستمية، وهو بذلك يمثل إضافة ومصداقية لكتاب ابن الصغير.

1-2ابن القوطية. أبي بكر (ت.367هـ/977م): ذكر تاهرت في سياق الحديث عن الثائر عمر بن حفصون، حيث كانت تاهرت ملاذا لبعض الأندلسيين الذين لم تسمح لهم الظروف بالاستقرار السياسي في الأندلس، وهو حال ابن حفصون، والشيء الآخر أن تاهرت كان بها فئة من الحرفيين الأندلسيين منهم ذلك الخياط من ريّة الذي أتى إليه ابن حفصون. بالإضافة إلى حرفة الخباز التي كشف عنها المؤلف. كما يؤكد لنا ابن القوطية ولاء الأئمة الرستميين للأمويين في الأندلس.[6]

ترتبط المعلومة زمنيا بفترة حكم أحد أبناء أبي اليقظان بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، أي أن الحادثة وقعت بعد سنة 281هـ/894م، وهو إطار زمني بعيد نسبيا عن ابن القوطية، رغم عدم استبعادنا أنه ولد قبل سقوط الدولة الرستمية، وربما يكون وعاها أو عاصرها في جزء من شبابه، فالدراسات تقول أنه عمّر طويلا.[7] وتبدو معلومات المؤلف –على شحّها- مهمّة في الكشف عن الحِرَف في تاهرت ووجود جالية اندلسية، وولاء الرستميين للأمويين في الأندلس.

1-3ابن حوقل النصيبي. أبو القاسم (ت.بعد 367هـ/977م): وصف تاهرت أنها مدينتان كبيرتان، قديمة أزلية ومحدثة، القديمة ذات سور وهي على جبل ليس بالعالي، وبها كثير من الناس وبها جامع، وفي المحدثة كذلك جامع له امام وخطيب، وقدم لنا صفة اقتصادية تتمثل في ظاهرة التجار والتجارة في المحدثة بشكل أكبر، كما أضاف أن المياه كثيرة وهي تدخل إلى أكثر دورهم، ومن مرافق المدينة التي ذكرها الحمامات والخانات، بالإضافة إلى الأشجار والبساتين، وهي معقل ومعدن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين (الخيول) الفراهية، والعسل والسمن كثير بالإضافة إلى ضروب وأنواع الغلاّت.[8]

وصف ابن حوقل مهم جدّاً، وتبرز قيمة وصفه أنه زار بلاد المغرب وأهم مدنه، وكان دقيقا في أغلب أوصافه في الجمع بين تاريخ المدن والحال التي هي عليها أثناء زيارته لها، فيقول عن طبنة مثلا: وكانت عظيمة ووصف مظاهر عظمتها، ثم وصف ما آلت إليه: فصاروا بعد السعة والدعة إلى الضّيق والذلّة والصغار والشتات والقلّة مشرّدين في البلاد.

ويصف هاز وهو يجمع بين ماضيها وحاضرها بالقول: "قرية كانت قديمة عظيمة فخربت وهي في وقتنا هذا مفازة."[9]

يبدو واضحا أن تاهرت لا تزال إلى غاية منتصف القرن الرابع (350هـ/961م) تحافظ على كل مقوّمات المدينة والحاضرة، ويبدو جليّا كذلك البعد الاقتصادي للمدينة من خلال وصف ابن حوقل، وهو ينفرد بالتطور العمراني للمدينة عندما أشار إلى وجود الحمامات والخانات، وتقنية إيصال المياه إلى دور المدينة. من الواضح أن ابن حوقل قد ركّز على الجانب الاقتصادي والعمراني للمدينة، وهي جوانب حافظت على حيويتها في النصف الأول من القرن الرابع هجري

4-1 المقدسي المعروف بالبشاري (ت.380هـ/990م): قال أن تاهرت اسم المدينة وهو اسم لقصبتها كذلك، ومصادر أخرى ذكرت قصبة المدينة باسم المعصومة، وصفها أنها بلخ المغرب، وذكر التفاف الأشجار حولها والأنهار والبساتين والأعين. ثم ذكر وصفا كان ابن الصغير قد انفرد به، وهو قوله: "وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب" لكنه اعترض على من يفضّلها على دمشق وعلى قرطبة، ثم واصل وصفه بأنه بلد كبير كثير الخير رحب رفق طيّب رشيق الأسواق، غزير الماء، جيّد الأهل. وعن عمرانها يقول أنه قديم الوضع محكم الرصف عجيب. ثم وصف عمرانها المتكون من جامعان قد بنيا بالحجارة، وهما قريبان من الأسواق، ومن دروبها المعروفة الأربعة (باب مجانة؛ درب المعصومة؛ درب حارة القفير؛ درب البساتين) وإذا كان صاحب الاستبصار ذكر أن بالقرب من تاهرت تقع قلعة هوارة، فإن المقدسي قال أن بقربها مدينة تسمّى رُها، ويُفهم من وصفه أنه زار المغرب، ولم يدخل الأندلس، حيث قال: "وقد جعلنا المغرب مع الأندلس كهيطل وخراسان، غير أنّا لم ندخل الأندلس، فَنُكَوِّرُها."[10]

إن دخول المقدسي لبلاد المغرب لا ينفي اعتماده على مصادر سابقة وروايات شفوية، وربما كان وصفه لتاهرت يجمع بين المشاهدة والنقل، والمدينة في عهده لا تزال تحافظ على الصورة التي ورثتها عن الفترة الرستمية، ووصفه لها فيه تشابه وتقاطع مع ما قدّمه ابن الصغير، وربّما يكون قد نقل عنه عبارة "وجود الغرباء فيها"؛ إذ أن ذلك الوصف ينطبق أكثر على مرحلة الرستميين. واللافت أن المقدسي وجلّ المصادر الوصفية لا تشير إلى الصفة المذهبية للمدينة، ممّا يقوّي فرضية المدينة المغربية اللامذهبية، وهو يقدم

معلومات مهمّة فيما يتعلق بعمران المدينة كالمساجد والدروب، ولكن نرى أن الأسماء تحتاج إلى تدقيق ومقارنة جادّة بين النسخ المتوفرة من مخطوط التقاسيم.

5-1 البكري أبو عبيد (ت.487هـ/1094م)، المسالك والممالك، ج2: وصفها البكري أنها مدينة مسوّرة ولها ثلاثة أبواب، وهي باب الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وغيرها، وهي في سفح جبل، ولها قصبة تشرف على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر مينة، وعن الغلاّت قال أن بها جميع الثمار، وذكر شهرة سفرجلها الذي يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما وشمًّا، وقال أنه يسمّى الفارسي، ثم ذكر شدّة بردها وكثرة غيومها وثلجها، وأورد شعر بكر بن حماد، كما أورد قصة الرجل الذي قارن بين شمس الحجاز وتيهرت، وينسب البكري هذه الأوصاف إلى تاهرت الحديثة أو تيهرت السفلى، ثم قال أن القديمة تقع على بعد خمسة أميال في شرقي الحديثة، وهو حصن لبرقجانة، ثم عدّد بعض القبائل التي تسكن أرباض المدينة مثل لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة وبرقجانة التي سمي باسمها حصن تاهرت القديمة.[11]

يعتبر البكري من أهم المصادر التي وصفت تاهرت، حيث ذكرها في أربعة عشر موضعاً، والمعروف أن البكري لم يزر المغرب ولم يخرج من الأندلس، وجلّ معلوماته استقاها من محمد بن يوسف الورّاق، وبالاعتماد عليه قدم البكري إضافات عن تاهرت لا نجدها في المصادر الوصفية الأخرى، كالحديث عن بعض أئمتها وظروف تأسيس المدينة من طرف عبد الرحمن بن رستم، لكنه لم يتعرض لمصير العمران في المدينة بعض سقوطها في يد العبيديين. وهو الذي ركّز كذلك على الجانب المذهبي لمنطقة تاهرت، فذكر الاباضية والواصلية والصفرية

يصف البكري المسجد الجامع المتكون من أربعة بلاطات، ووظف عبارة: "فهو كذلك إلى اليوم" ولسنا متأكدين إن كان يقصد الزمن الذي ألف فيه، والغالب أنه انساق مع النص المقتبس للوراق، فهو وصف ينطبق على زمن الوراق. في القرن الرابع وليس الخامس.[12] وما يقوّي فرضية اقتباس البكري دون الانتباه إلى تغيير المعلومات، قوله عن الموضع الذي بني فيه المدينة، "فاختطّوا وبنوا وسمي الموضع معسكر عبد الرحمن بن رستم إلى اليوم"[13]

6-1 الإدريسي أبو عبد الله الشريف (ت. نحو 558هـ/1162م): وصفها بصيغة الماضي بالقول: "ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين"، وذهب كما ابن حوقل إلى أن الواحدة قديمة والأخرى حديثة، وأن القديمة ذات سور وهي على قمة جبل قليل العلو، ويسكنها ناس من البربر، وبها أسواق عامرة وتجارات وبضائع، وبأرباضها مزارع وضياع جمّة، وبها البراذين والخيل والكثير من البقر والغنم، ومن الغلاّت العسل والسمن، وأخرى كثيرة ومباركة، وحولها مياه متدفقة وعيون جارية، وهي تدخل أكثر دورهم، وعلى هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروب الفواكه.[14]

يوجد تطابق كبير بين وصف الإدريسي ووصف ابن حوقل، والمنطق طبعا أن الادريسي نقل عن ابن حوقل، إما من كتابه مباشرة، أو من كتاب آخر. وبما أن الإدريسي بدأ كلامه بصيغة الماضي، فيمكن القول أن جلّ وصفه لتاهرت يعود لزمن ابن حوقل في القرن 4هـ/10م في العهد الفاطمي

7-1 كتاب الاستبصار، لمؤلف مراكشي من القرن السادس هجري (12م) ميلادي: وصفها أنها من مدن المغرب الأوسط المشهورة، وأنها قديمة كبيرة، عليها سور صخر، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة، وهي في سفح جبل، وهي على نهر كبير، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار، وفيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة. ثم وصف شدّة بردها وكثرة غيومها وثلجها، وأورد أبيات بكر بن حماد في ذلك، والرجل الذي قارن بينها وبين شمس الحجاز، وذكر أن بالقرب منها تقع قلعة هوارة.[15]

يبدو صاحب الاستبصار مستوعبا لتغير حال تاهرت، حتى وإن كان قد نقل معلوماته من مصادر أخرى وعلى رأسها البكري؛ إذ أشار أنها قديمة، ووظّف عبارة: "كان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار" وهي عبارة تفيد بالضرورة أن حال المدينة قد تغير ولم تعد بالشكل الذي كانت عليه من كثرة البساتين المثمرة.

8-1 القزويني أبو عبد الله كرياء بن محمد بن محمود (ت. 682هـ/1283م): وصفها بأنها مدينتين مقابلتين، يقال لأحدها تاهرت القديم وللأخرى الحديث، وصف أشجارها وثمارها وخاصة السفرجل "سفرجلهما يفوق سفرجل الآفاق طعما وحسنا، وأشار إلى كثرة الأمطار والانداء والضباب وشدّة البرد، وقلّة رؤية الشمس بها. وصف أهلها بالحمق، وأورد في

السياق حكاية قاضيها الذي حكم في جناية بصدفة فتح المصحف، وعندما خرج في آية "سنسمه على الخرطوم" فجدع أنف الجاني.[16]

عاش القزويني بعد زوال تاهرت، لكنه اكتفى بوصفها دون الإشارة إلى زوالها، والراجح أنه أورد ما تراكم لديه من معلومات، منها القديمة كوصف المدينتين، والراجح أنها من البكري، الذي نقلها كذلك من الوراق. ومنها القريبة لعصره كوصفهم بالحمق، مع الأخذ بعين الاعتبار أن حكاية الحمق التي جعلها عامة لسكانها قليلة المصداقية. لكن لا يمنع القول أنها قصة تعكس حال تاهرت في سنواتها الأخيرة وهي متدهورة حضاريا وفكريا

1-9 ابن عذاري المراكشي (ت. بعد 712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: خصّص فقرة عنوانها "ذكر مدينة تيهرت" قدّم فيها بعض المعلومات التي اقتبسها من البكري، الذي اقتبسها بدوره من الوراق، ومّما اهتمّ به ابن عذاري على خلاف المصادر السنيّة، هو تعداد الائمة الرستميين وفترة حكم كل واحد منهم، مع تسجيل خطأ في اسم عبد الوهاب الذي ذكره باسم "عبد الوارث"، ومن المعلومات المهمة ذكر اهم الولاة الذين تعاقبوا على المدينة في عهد الدولة الفاطمية. ومن المعلومات المهمة كذلك الحديث عن خراب المدينة وانتقال أهلها وأربابها عنها، حتّى أنه اقتبس أبياتا شعرية في هذا السياق، واللاّفت أن ابن عذاري صرّح أن حديثه كان عن تاهرت القديمة، التي خرّبها الخير بن محمد بن خزر الزناتي.[17]

1-10 ابن خلدون عبد الرحمن (ت.808هـ/1405م): ذكر ابن خلدون تاهرت في اثنان وستّون موضعاً، وهو رقم يؤكّد قيمة كتاب ابن خلدون في تاريخ المغرب الأوسط عامة وتاهرت خاصّة، وقد وفّق ابن خلدون أكثر من غيره في تتبّع التحولات السياسية والعسكرية التي كانت تاهرت مسرحا لها، وهي تحوّلات جاءت في سياق صراع القوى المغربية، الذي كان حظ تاهرت منه سيّئا، وسنقتصر على آخر محطّة ذكرت فيها تاهرت زمنيا، كان ذلك في مطلع القرن السابع هجري، في إطار صراع آخَرَ ضمن حلقات الصراع بين الموحدين وبنو غانية، وربط ابن خلدون بين تخريب بنو غانية لتاهرت وبين تطور عمران تلمسان، بالقول: "...خرب كثيرا من أمصارها مثل تاهرت وغيرها، فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط."[18] وكان خرابها في سياق خراب مجموعة من حواضر المغرب الأوسط، في قوله: "وكان خراب هاتين المدينتين (تاهرت وارشقول) فيما خرّب من امصار المغرب الاوسط"[19]

وهي جدلية طرحها باحثون تتعلق بكثرة الخراب في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط مقارنة بالمغربين الأدنى والاقصى. وحسب المؤلف فإن المسؤول عن هذا التخريب النهائي لعمران المدينة هم بنو غانية وحلفائهم من القبائل الأعرابية في قوله: "وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلاليين."[20] وربما كان ابن خلدون رفقة ابن عذاري الوحيدان اللذان ذكرا المراحل الأخيرة التي عاشتها تاهرت قبل زوال عمرانها نهائيا.

11-1 ابن الوزان الزياتي (ت. قبل957هـ/1550م): تكتسي ملاحظات حسن الوزان المعروف بليون الإفريقي حول موقع تاهرت أهمية بالغة، وقد استعمل كلمة تاقْدَمْتْ بدل تاهرت، لكن معلوماته غير دقيقة في تحديد السنوات ونسبة الأحداث لأصحابها، كقوله إن الذي تولّى إمارتها أخ لوالد إدريس الثاني مؤسس فاس. ويظهر اهتمامه بالتاريخ القديم للمدينة والمنطقة في قوله: "لا تزال تظهر فيها آثار معبدين كبيرين حيث كانت تعبد الأوثان" وهي إشارة إلى فترة الاحتلال الروماني، في حين كنّا ننتظر أن يحدّثنا عن آثارٍ تعود لفترة أقرب ألا وهي الفترة الإسلامية. ويلاحظ عموما على أوصاف ابن الوزان لمدن المغرب التركيز على الآثار القديمة التي تعود لفترة ما قبل الإسلام، حتى أنه قال عن تاقدمت "هي مدينة قديمة جدا تأسّست حسب قول بعضهم في عهد الرومان، وقد أطلق عليها الأفارقة هذا الاسم."[21] والرّاجح عن حضور البعد الروماني في أوصاف الوزان، أنّ ذلك له علاقة بتنصّره ووجوده في روما وتواصله مع البابا ليون العاشر، والدخول في خدمته.[22]

أما قوله إن الإمارة استمرت في اسرته قرابة مائة وخمسين سنة، فتبدو قريبة من الدقّة إذا أخذنا في الحسبان سنة 144هـ/761م التي فرّ فيها عبد الرحمن بن رستم من افريقية إلى موضع تاهرت، فتصبح الفترة الزمنية إلى غاية 296هـ/908م سنة سقوط العاصمة الرستمية 152 سنة، أي بإضافة سنتين فقط عن المدّة التي حدّدها ابن الوزان. يحتاج الأمر إلى تحليل للوصول إلى سرّ استعمال كلمة تاقدمت واختفاء اسم تاهرت في عهد الحسن الوزان، وإن كان المؤلف يفسّر مدلولها بالمدينة القديمة التي تعود إلى الفترة الرومانية. لكننا لا نستبعد أن الاسم قد يحمل دلالة موقع تاهرت باعتباره يشير إلى وجود آثار مدينة تاهرت (القديمة).

وبعد 613 سنة، أي في سنة 1252هـ/1836م، أنشأ الأمير عبد القادر عاصمته على أنقاض وأُسُسِ تاهرت الرستمية، وحافظ على اسم تاقدمت.[23]

2-ملاحظات ودلالات: يمكن أن نفرّق بين ثلاثة أنواع من المصادر التي وصفت تاهرت، وهي:

- مصادر معاصرة للدولة الرستمية: قليلة وهي ابن الصغير الذي عاش في المدينة، واليعقوبي الذي زارها، وكذلك ابن خرداذبة (ت.300هـ/912م) كان معاصراً لها في عهد أفلح، حيث قال في هذا السياق: "وفي يدي الرستمي الاباضي وهو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم"[24]

- مصادر جاءت بعد سقوط الدولة الرستمية: وهي كثيرة ويمكن تصنيفها بدورها إلى قسمين: الأول خاص بالأوصاف التي تنطبق على القرن الرابع، وفيه لا تزال المدينة تحافظ على قيمتها العمرانية والإدارية باعتبارها ولاية تابعة للفاطميين، أو زناتية بولائها للأمويين في الاندلس. والصنف الثاني خاص بالقرنين الخامس والسادس، وهي فترة غياب اقتصادي وتراجع فكري وتدهور وانهيار عمراني

- مصادر بعد زوال العمران في تاهرت: ابن عذاري وابن خلدون وحسن الوزان، هؤلاء أشاروا إلى خراب المدينة متهمين بنو غانية، مثلما اتُّهموا بتخريب العديد من مدن المغرب الأوسط، والحسن الوزان هو الذي استعمل اسم تاقدمت للاستدلال على أنقاض تاهرت

يحمل هذا التقسيم إشكاليات، فالنوع الأول كتب في أواخر الدولة الرستمية، وقد اعتمد على الرواية الشفوية في توثيق أخبار بداية الرستميين وظروف تأسيس مدينة تاهرت؛ والنوع الثاني كان في الغالب يوثّق لتاهرت الرستمية، ونادرا ما كان يشير إلى تاهرت الفاطمية أو الصنهاجية أو الزناتية أو الموحدية؛ ومن الأمثلة في هذا الشأن نورد وصف الاصطخري الذي يؤكد من جهة أنه يكتب في الفترة الفاطمية كقوله مثلاً: "عبيد الله الخارج بالمغرب إلى حين تصنيف هذا الكتاب" ثم هو يقول عن تاهرت: "وهي مدينة كبيرة خصبة وبها الاباضية وهم الغالبون عليها."[25] أما النوع الثالث ففيه نوع يصف تاهرت قبل زوالها، والآخر يصف ما تبقى من آثار تاهرت

2- المسار السياسي والعسكري بعد الرستميين: على ضوء المعلومات المتناثرة في المصادر جمعنا قائمة من الولاة والعمال الذين تولوا أمور تاهرت لصالح الدولة الفاطمية والصنهاجية والأمراء الزناتيون الذين حكموها لصالح الدولة الأموية في الأندلس، وهم:

العمّال	الحاكم	الدولة	السنة	المصدر
أبو حميد دوّاس اللهيصي	ولاّه أبو عبد الله الداعي	الدولة الفاطمية	299هـ/911م 6أشهر	ابن عذاري. البيان، ج1، ص.197
مصالة ابن حبوس المكناسي	عبيد الله الشيعي	الدولة الفاطمية	299-312هـ/ 911-924م	البكري، المسالك والممالك، ج2: 770/ابن عذاري، البيان، ج1، ص.197
محمد بن خزر الزناتي	أمير زناتي	الأمويون في الاندلس	313هـ/925م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص.197
يصل بن حبوس المكناسي		الدولة الفاطمية	313-319هـ/ 925-931م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص.197
أبي مالك يغْمُراسن بن أبي شحمة اللهيصي عاملها وصاحب الخراج بها	القائم لدين الله الفاطمي	الدولة الفاطمية	322-323هـ/ 933-934م	ابن حيان، المقتبس، ج.5،ص.369، 373-374/ ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
أبو القاسم الأحدب ابن مصالة بن حبوس المكناسي	ولاّه سكان تاهرت قتله ميسور الفتى		324هـ/935م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
داوود بن إبراهيم العجيسيّ	ولاّه ميسور الفتى	الدولة الفاطمية	332هـ/943م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
حميد بن يصل			333هـ/944م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
ميسور الفتى	ولاه إسماعيل الشيعي	الدولة الفاطمية		ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
محمد بن خزر الزناتي وابنه الخير	بنو خزر من زناتة	لصالح أموي الاندلس		ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
يعلى بن محمد				ابن عذاري، البيان، ج1،

اليفرني الزناتي				ص.198
جوهر الصقلّي	المعز لدين الله الفاطمي	الدولة الفاطمية	349هـ/960م	ابن عذاري، البيان، ج1، ص.198
خلوف بن أبي محمد	بلكين بن زيري	الدولة الزيرية	362هـ-/972م	النويري، ص.311-312
يطوفت بن بلكين	باديس بن المنصور	الدولة الزيرية	389هـ-/998م	النويري، ص.325
استخلف يطوفت ابنه أيوب	باديس بن المنصور	الدولة الزيرية	389هـ-/998م	النويري، ص.326

يعتبر ابن عذاري أهم مصدر حصر وعدّد حكام تاهرت منذ الدولة الرستمية، وعبر عن فترة حكمهم بعبارة: ملك بني رستم، ثم اقتصر على ولاتها في أيام الشيعة، وذكر وجود دار الامارة بها.[26] وممّا يؤسف له أن ابن عذاري لم يكمل لنا قائمة الولاة بعد الفاطميين، فقد ثبت أن المدينة كانت تمثل ولاية حكمها أمراء من البيت الباديسي والحمادي، وربما دخلت تحت النفوذ المرابطي، لكن المعلومات غير متوفرة في هذا الشأن. ثم انتقل صاحب البيان مباشرة إلى مرحلة خراب المدينة دون تقديم تفاصيل، وبعد أن استشهد بأبيات شعرية لمجهول، قال: "وممّا قيل حين قضى الله بخرابها، وانتقال أهلها عنها وأربابها."

حافظت تاهرت على مكانة لائقة كعاصمة قديمة، وظلت عاصمة لإقليم في عهد بني عبيد وصنهاجة، يتولى شؤونها أفراد من البيت الزيري، لكنها ظلت متأرجحة في تبعيتها بين العبيديين والأمويين في الأندلس.[27] فقد وصفت إحدى المصادر زيري بن مناد الذي قتل في 360هـ/970م "قائد الشيعي على تاهرت"[28] ومنذ تلك الفترة أصبحت المدينة بمثابة القاعدة الخلفية للفاطميين وصنهاجة، عندما يتوغلون في المغرب الأقصى، وعندما انهزم يطوفت أخ المنصور أمام زيري بن عطية الزناتي بالقرب من فاس سنة 374هـ، هرب إلى تاهرت، ثم إلى أشير.[29] وفي 374/373هـ: عقد المنصور بن بلكين لأخيه أبي البهار على تاهرت. وفي عهد باديس عقد لعمّه يطوفت 385-386هـ/995-996م على تاهرت.[30] وفي 389هـ/998م ملك زيري بن عطية تاهرت وما يليها من أعمال وأقام الدعوة للعامريين، بعد أن هزم جيش الزيريين بقيادة حماد بن بلكين والوزير ابن أبي العرب، بالقرب من وادي مينة على عشرين

ميلا من مدينة تاهرت.[31] وفي 389هـ/998م أعاد باديس عمه يطوفت عاملا على تاهرت وأشير بعد هزمه لزيري بن عطية.[32]

ممّا سبق، يظهر كثرة الولاة الذين عرفتهم تاهرت في فترة زمنية قصيرة، وهي حالة تترجم بشكل واضح حالة الاضطراب والقلاقل والمعارك والتجاذبات بين معسكرين هما الدولة الفاطمية بأداة صنهاجية والدولة الاموية في الاندلس بأداة زناتية.

3- تاهرت وإنتاج الأعلام: استمرت تاهرت بعد سقوط الرستميين في انتاج الأعلام والأفكار، وهي عادة المدن الحضارية التي تستمر في انتاج الفكر على الرغم من سوء أحوالها السياسية وتدهور آثارها العمرانية، لكن الملاحظ أن جلّ الأعلام التاهرتيين الذين عاشوا بعد الرستميين، لم يُنْسبوا إلى مدينتهم إلاّ على سبيل النشأة أو الأصل، بمعنى أن تاهرت استمرت في انتاج الأعلام باعتبار خلفيتها الحضارية، لكنها كانت بالمقابل طاردة لهم بحكم واقعها المضطرب سياسياً، والمتدهور عمرانيا، ممّا انعكس سلبا على استقرار أعلامها، فنجدهم في مدن مغربية واندلسية، منهم سعيد بن واشكل التيهرتي، أورد له البكري بعض الأبيات في ذمّ تنس، بسبب علّة ألمّت به أثناء إقامته بها.[33] ومنهم مشارقة عرفوا باسم "التاهرتي" كالداعي علي بن عبد الله العلوي المعروف بالتيهرتي: كان الحاكم الفاطمي قد أرسله سنة 387هـ/997م في عهد باديس بن المنصور، واسمه الشريف الداعي علي بن عبد الله العلوي المعروف بالتيهرتي.[34] ولسنا متأكدين من علاقة هذا الشخص بمدينة تاهرت. وفي معجم أعلام الجزائر أحصينا ثلاثة عشر علَمًا تاهرتيا، جلّهم قد غادرها بعد سقوط الرستميين، منهم أحمد بن فتح المعروف بابن الخرّاز التيهرتي: لا يوجد تاريخ محدّد لوفاته، وتشير إحدى المراجع أنه عاش في القرن الثالث هجري، وأنه تولى القضاء في عهد الدولة الرستمية، ثم هاجر إلى مدينة البصرة المغربية ومدح حاكمها أبا العيش بن إبراهيم بن القاسم وله أبيات أخرى في ذمّ أهل فاس،[35] وهي معلومات في حال ثبوتها، تؤكد أن هذا الأديب غادر تاهرت بعد سقوطها.[36] ومنهم احمد بن قاسم البزاز التاهرتي (ت.395هـ/1004م)، والحسن بن طريف التاهرتي (ت.501هـ/1107م)، والاديب النحوي عبد الله بن منصور التاهرتي (ق.7هـ/13م)، الذي يعتبر العَلم الأكثر قربا من سقوط المدينة وزوال عمرانها.[37]

4- مسار تراجع عمران تاهرت: يبدو من المهم استيعاب التركيبة البشرية للمدينة، فربما ساعدنا ذلك على تفسير وتيرة الأحداث وتناقص السكان واختفاء المدينة تدريجيا من المصادر ومن أرض الواقع. وربما استطعنا إيجاد علاقة بين الفسيفساء البشرية ومصير المدينة؛ إذ من الواضح أن تاهرت أصبحت تضم في السنوات الأخيرة قبل سقوط الرستميين خليطا من القبليات والأعراق والمذاهب، ومثلما كان هذا التنوع من أسباب الازدهار الحضاري للإمامة، أضحى من عوامل السقوط، وينطبق عليها المقولة التي ضمّنها ابن خلدون مقدمته "في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة."[38] وقد بيّن أن السبب هو اختلاف الآراء والأهواء، وترى كل عصبية أنها أولى وأحق بالحكم. وهي ظاهرة نلمسها بشكل جليّ من خلال وصف ابن الصغير المعاصر لتلك الفترة. ويفسّر انعدام الولاء عند سكان تاهرت، كثرة الانتقام الذي مارسته عليها القيادات القبلية المختلفة (صنهاجة، زناتة، بنو غانية، الموحدون)

في منتصف القرن الرابع وصف ابن حوقل تاهرت وأقر تغيّر حالها عمَّا كانت عليه في السابق، فقال: "وقد تغيّرت تاهرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت."[39] وهي شهادة قوية من شاهد عيان على ما وصلت إليه المدينة وكونها تدفع ثمن التنافس الفاطمي الصنهاجي-الأموي الزناتي. والنصوص المصدرية في هذا السياق متوفرة؛ حيث ذُكِرت تاهرت أكثر من مرة مقترنة بعمليات تخريبية تأديبية انتقامية، قد تختلف المفاهيم المستعملة للدلالة على ذلك، حسب الجهة السياسية والقبلية وموقعها من المدينة. وفي هذا الجدول نماذج من الأذى العسكري الذي عانت منه المدينة

بين 362- 367هـ	وبلغ بلكين خلاف أهل تاهرت وإخراج عامله فرحل إليها وخرّبها يذكر عاملها أن أهلها خالفوا، فسار إليهم وقاتلهم **ودخل البلد بالسيف في شهر رمضان فقتل وسبا ونهب وأحرق البلد.**	العبر، ج.6، ص.206 النويري،ص.312
379هـ	عند ملاحقة المنصور لعمه أبي الهار، دخل عسكر المنصور تاهرت **وانتهبوها**، ثم طلب أهلها الأمان فأمنّهم	الكامل،ج.7،ص.441
389هـ	**حروب عظيمة** بين جيش باديس (يطوفت وحماد)، وجيش زيري بن عطية على بعد مرحلتين من تاهرت	الكامل،ج.8،ص.8

612 هـ/	في حروب بين يحي بن غانية والموحدين: **"واستبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها"**	ابن خلدون: العبر، ج6، ص375

في حدود 605هـ/1208م، هزم يحي بن غانية، والي الموحدين على تلمسان الشيخ أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن، عند خروجه إلى بلاد زناتة، وقتله ثم "استبيحت تاهرت، فكان آخر العهد بعمرانها."[40] ويتفق محقّق كتاب وصف افريقيا أن الخراب الحقيقي كان بغارة يحي بن غانية سنة 605هـ/1208م، واستمرت مع الأنفاس الأخيرة بالتمردات الزناتية والأعرابية على السلطات المركزية في مراكش وتلمسان، ويحدّد تاريخ 620هـ/1223م كمعلم زمني أصبحت فيه المدينة عبارة عن أطلال وآثار.[41]

5- تاهرت تدفع ثمن تاريخها وموقعها: تسوق المصادر قولاً لمؤسِّس المدينة في سياق ما اعتادته مِنْ إظهار النظرة الحدسية والاستشرافية لبعض الشخصيات الدينية والسياسية، فنقلت على لسان عبد الرحمن بن رستم وهو يشرع في بناء عاصمته: "هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبداً"[42] وبتتبع سير الأحداث والجفاء المستحكم بين صنهاجة وزناتة، يتبين أن موقع تاهرت كان مسرحا لعديد المعارك بين الطرفين. كما كانت حاضرة في المراسلات، بين القوى السياسية المشكّلة للغرب الإسلامي في العصر الوسيط، خاصة أثناء الصراع الفاطمي الأموي، ومن خلال مراسلة أحد أمراء زناتة للخليفة الناصر الأموي، يتبين أن المدينة لم تكن تحظى بمكانة لائقة في وجدان أمراء زناتة، بالرغم من وقوعها في مجالهم القبلي، فيصفها بسبب تبعيتها للفاطميين بأنها "دار المشركين ومأوى الملحدين"[43] على خلاف مدن أخرى مثل القيروان وفاس، التي يمكن تصنيفها ضمن المدن المحبّبة إلى الزعامات السياسية المغربية، فتحظى بالمدح حتّى وهي تحت سيطرة منافسيهم، ويدعون الله أن تعود إلى سلطتهم، فنقرأ عنها في المصادر "ردّها الله" و"فكّ الله أسرها". ولا يمكن تفسير هذه العاطفة الجافة تجاه تاهرت، بعيداً عن ماضيها المذهبي الإباضي المخالف.

كانت زناتة إذاً، تنظر للمدينة بعين الريبة، كونها تمثل قاعدة فاطمية في مجالات زناتية، والفاطميون عندما يفشلون في التوغل إلى نواحي تلمسان وفاس، كانوا يعودون إلى تاهرت باعتبارها قاعدة خلفية للانسحاب، لا يجب التنازل عنها،[44] وأمامية لمراقبة مجالات زناتة. وفي صراع عبد الله بن خزر أخ محمد بن خزر ضدّ علي الأندلسي عامل المسيلة، يصوّر لنا ابن حيان نموذجا من الثمن الذي كانت تدفعه المدينة في الصراع، فقد عمل عبد

الله بن خزر على عزل المدينة عن طرق الإمداد التي تأتيها من افريقية: "فأقام بجيشه في سوق ابن ماها، مغاورا لأهل مدينة تاهرت، قاعدة الشيعة ونقرة مشائها، قاطعا للميرة عنهم، حاجزا بين افريقية وبينهم. ووصفت مرة أخرى وهي تابعة للفاطميين أنها كهف الفاسقين وفي موضع آخر يصف طرده للفاطميين من مجالات زناتة إلا تاهرت: "فليس لهم اليوم في الساحل مكان ولا منبسط، ما خلا مدينة تاهرت، دار المشركين ومأوى الملحدين."[45]

ورثت القوى المغربية العاصمة الرستمية بما تحمله من بعد استراتيجي في العدوة المغربية، فتكرّر ذكرها في مراسلات القوى السياسية في النصف الأول من القرن الرابع هجري، وفي مراسلة أخرى لمحمد بن خزر للناصر يخبره بما حقّقه من سيطرة على مرفئ تَسْفا من المغرب الأوسط، فيحدد موقع المرسى ومسافته بالنسبة لتاهرت: "وهي بغربي تاهرت، دار الفاسقين وقريبة منها، بينها وبينها ثلاثة أيام."[46] ووصفها مرة أخرى "عازمون على النهوض إلى المدَرة السوء تاهرت، وما هنالك لاغتيالها ومحاصرة الفاسقين بها، والتغيير عليهم، وقطع المرافق عنهم، وحلّ عرى اليهودي منها، وإبعاده عنها."[47] وبالفعل فقد حقّق محمد بن الخير هدفه في تخريبها.[48] لقد فقدت مكانتها في وجدان الزناتيين على الرغم من وقوعها في مجالهم الطبيعي، وأنها من معاقلهم القديمة والتقليدية، فقد ذكر ابن عذاري أن بنو مغراوة كانوا بجهة مدينة تاهرت في العهد الفاطمي،[49] وكانت منافسة لتلمسان.[50] والسبب إصرار الفاطميين ومن بعدهم صنهاجة على أن تبقى قاعدة أمامية لهم وإصرارهم على تبعيتها لهم. فظهرت المدينة في عين زناتة وكأنها الابن العاقّ الذي يجب التبرّئ منه واستئصاله.

لا نبالغ إن قلنا إن أكثر مدينة في المغرب الأوسط شهدت تنافساً من أجل السيطرة عليها بين الفاطميين والأمويين، هي مدينة تاهرت. فهي حاضرة بقوة في مراسلة الأمويين مع حلفائهم من أمراء زناتة. ومن المؤشرات التي تقوم كدليل على وقوع تاهرت في منطقة تماس بين نفوذ الفاطميين والأمويين، حديث ابن أبي زرع عن امتداد نفوذ الناصر الأموي في بلاد المغرب، قائلاً: "وخطب له على منابره من مدينة تاهرت إلى مدينة طنجة"[51] فتاهرت هي حدّ نفوذ الأمويين من الشرق. كما وقعت إحدى أهم المعارك بين الفاطميين بممثليهم كتامة وصنهاجة، وممثل الأمويين زناتة وقائدها يعلى بن محمد اليفرني، على مقربة من مدينة تاهرت سنة 347هـ.[52]

كما أشارت المصادر إلى عوامل أخرى تراكمت مع العوامل السياسية والعسكرية، ساهمت في تراجع المدينة، مثل الحرائق والقحط، فتذكر إحدى المصادر أن أسواق مدينة تاهرت "قاعدة زناتة" تعرضت للحرق سنة 305هـ/917م، في سنة النار، كما أشار نفس المصدر إلى الجوائح التي كان بلاد المغرب عرضة لها، منها قحط اشتدّ سنة 411هـ/1020م وقد حدّد معالمه من تاهرت إلى سجلماسة، وكثر الفناء في الناس.[53] ووجدنا في الشّعر ما يوثّق سقوط تاهرت مرّتين، مرّة بعد سقوط عاصمة الرستميين سنة 296هـ/908م، وما رافق ذلك من تغيّر حالها، ومرّة بعد زوال عمراها. ففي الحالة الأولى رثاها بكر بن حمّاد التاهرتي:[54]

زُرْنا مَنـازِلَ قَـوْمٍ لَـمْ يَزورونَـا إِنَّـا لَفـي غَفْلَةٍ عَمَّـا يُقاسونَـا
لَوْ يَنْطِقونَ لَقالُوا: الزَّادُ، وَيْحَكُمْ حَلَّ الرَّحيلُ فَمَا يَرْجو المُقِيمُونَا
المَوْتُ أَجْحَـفَ بِالدُّنْيـا فَخَرَّبَها وَفِعْلُنا فِعْـلَ قَـوْمٍ لا يَمُوتُونـا
فَالآنَ فابْكوا فَقَدْ حَقَّ البُكاء لَكُمْ فَالحَامِلونَ لِعَـرْشِ اللهِ بَاكُونَـا
مـاذا عَسَى تَنْفَعُ الدُّنْيـا مُجْمِعِهَا لَوْ كانَ جمع فِيها كَنْـزُ قَارُونَـا

وفي الثانية أبيات شعر لمجهول أوردها ابن عذاري، وصف فيها زوال عمران تاهرت، وانتقال أهلها وأربابها عنها، منها هذا البيت:[55]

كَأَنْ لَمْ تَكُنْ تِيهَرْتُ داراً لِمَعْشَرٍ فَدَمَّرَهَا المِقْدارُ فِيمَنْ تَدَمَّرا

خاتمة: يبدو أن تاهرت كانت تحمل بذور فناءها منذ العهد الرستمي، وذلك بتعدّد قبائلها ومذاهبها، وعدم التجانس الذي ظهر على التركيبة الاجتماعية، خاصّة في السنوات الأخيرة من حكم الرستميين وضعف أئمتها، وقد كان ابن الصغير شاهداً على تلك الفترة المضطربة.

بعد سقوط الإمامة انطلق الصراع الفاطمي الأموي على بسط النفوذ في العدوة المغربية بأدوات محلية (صنهاجية زناتية)، وكانت تاهرت هي نقطة الارتكاز في ذلك الصراع، وكان حظّها سيّئاً ونصيبها كبيراً في الحروب. وجُلُّ ما ذكر حولها لا يخرج عن كونها منطقة صراع بين القوى المغربية، تتقاذفها بين الحين والآخر. بين: الفاطميين والامويين؛ بين صنهاجة وزناتة؛ بين الباديسيين والحماديين؛ بين المرابطين والحماديين؛ بين بنو غانية والموحدين. وهو صراع كان له تأثير مباشر وكبير على تراجع تاهرت عمرانيا وحضاريا. وهي بالرغم من ذلك ظلّت مُنتجةً للأعلام بحكم رصيدها الحضاري، وطاردةً لهم في نفس الوقت

باعتبار أوضاعها الأمنية المضطربة. وممّا عجّل باندثارها كذلك أنها لم تكن يوماً تشكّل مرجعية وقدسية للقوى المغربية المحيطة بها، إلى أن حان أوان زوالها النهائي في حدود 612 هـ/1215م.

الهوامش:

*جاء ذكر تاهرت في دراستين (مذكرة ومقال) بحث أصحابها حول ظاهرة خراب مدن المغرب الأوسط، هما: بوقاعدة البشير، خراب المدن بالمغرب الأوسط والأدنى، مذكرة ماجستير، المدرسة العليا للأساتذة، الجزائر، 2013/2012؛ شخوم سعدي، ظاهرة خراب المدن بالزاب والمغرب الأوسط، مجلة الحضارة الإسلامية، مجلد 17، عدد28، جامعة احمد بن بلّة، وهران، الجزائر. والدراستين تركّزان على مسار تخريب مدن المغربين الأوسط والأدنى، بصفة عامة.

1- بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية 160-296هـ/ 777-909م دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط4، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015م، ص.186-187----2- الاصْطَخري المعروف بالكرخي. أبي إسحاق إبراهيم بن محمد، مسالك الممالك، دار صادر، لبنان، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، 1927م. ص.36.

3- من المقاربات الطوبونيمية في هذا السياق، وجود اسم تَاهُوَّرْتْ، وهي قرية منسوبة إلى هوارة وكان منهم سكان أغمات بالمغرب الأقصى، ولا تزال تعرف إلى اليوم بمنطقة مسفيوة باسم تَاوَّرْتْ. أنظر: ابن الزيات. أبي يعقوب يوسف بن يحي التادلي (ت.617هـ/1220م): التشوّف إلى رجال التصوّف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، المملكة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط4، 2014م، ص.301----4- اليعقوبي. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت.284هـ/897م): كتاب البلدان، لبنان، دار صادر، (د.ت)، ص.353-

5- انظر الدراسة القيّمة: بن معمر محمد، حفريات في تاريخ قلعة هوارة من التأسيس إلى نهاية العصر الوسيط، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد12، ديسمبر 2017م، (ص ص:177-197)

6- ابن القوطية. أبي بكر (ت.367هـ/977م): تاريخ افتتاح الأندلس، تح: إسماعيل العربي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989م، ص.5

7- نفسه، ص.5----8 - ابن حوقل النصيبي. أبي القاسم (ت. بعد 367هـ/977م): صورة الأرض، ليدن، (د.م)، ط2، 1939م، ص.86

9- نفسه، ص.85-86-----10 –المقدسي. المعروف بالبشاري، (ت.380هـ/990م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصر، مكتبة مدبولي، ط3، 1991م، ص.2016، 228-229----11- البكري "أبي عبيد" (ت.487هـ/1094م)، المسالك والممالك، ج02، حققه وقدم له وفهرسه: أدريان فان ليوفن و أندري فيري، بيت الحكمة- الدار العربية للكتاب، تونس،1992م، ص.733-735

12- يعبّر أحد الباحثين عن هذا الإشكال عند البكري بالقول: "إن معطيات البكري قد تنسحب في معظمها على القرن الرابع الهجري." علاوة عمارة، موقع تلمسان من كرونولوجيا انتشار الاسلام في بلاد المغرب (ق.2-6هـ/8-12م)، مغرب أوسطيات، دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الاسلامي الوسيط، مؤسسة حسين رأس الجبل، قسنطينة- الجزائر، ط.01، 2013م، ص27.----13- البكري، نفس المصدر، ص.736

14- الإدريسي "أبو عبد الله محمد الشريف" (ت. نحو 558هـ/1162م) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تص و نش: هنري بيريس،.J.-C 1957 H.=1376 Alger, rue Dumont-d'urville, 12, livres des Maison La، ص.60

15 - كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس هجري (12م) ميلادي: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، المملكة المغربية، دار النشر المغربية، 1985م، ص.178

16 - القزويني. أبو عبد الله كرياء بن محمد بن محمود (ت.682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، لبنان، دار صادر، ط3، 2011م، ص.169

17 - ابن عذاري المراكشي (ت.بعد 712هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س.كولان و إ.ليفي بوفنسال، ط1، لبنان، دار الكتب العلمية، ج1، 2009م، ص.199-----18- ابن خلدون. عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: شحادة خليل، مراجعة سهيل زكار، ج7، دار الفكر، لبنان، 2000م، ص.105----19- ابن خلدون، نفسه، ج7، ص.105-----20 - نفسه، ص.105

21 - ابن الوزان الزياتي: وصف افريقيا، تر: حميدة عبد الرحمن، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ص.411

22-الطاهر خالد، مساهمة الحسن بن محمد الوزان في التأريخ لبلاد السودان من خلال كتاب وصف افريقيا، المجلة التاريخية الجزائرية، ع04، سبتمبر 2017، ص.52-----23- دحدوح عبد القادر، تاهرت-تاقدمت :معطيات ميدانية ورؤية جديدة، دراسات في آثار الوطن العربي، ص.680----24-ابن خُرْداذَبَه. أبي القاسم عبيد الله، المسالك والممالك، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، 1889م، ص.87

25- الاصطخري، المصدر السابق، ص.39----26- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص.197-198

27 -خطب للناصر على أغلب منابر بلاد المغرب، خاصة في المناطق التي تسيطر عليها زناتة من مدينة تاهرت إلى مدينة طنجة. ابن أبي زرع "علي" (ت.726هـ/1325م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مرا: عبد الوهاب بنمنصور، ط2، الرباط-المملكة المغربية، المطبعة الملكية، 1420هـ/1999م، ص.107؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج.2، ص.212.

28- ابن عذاري، نفس المصدر، ج.2، ص.242----29- النويري "أحمد بن عبد الوهاب" (ت.732هـ/1332م)، تاريخ المغرب الاسلامي في العصر الوسيط(إفريقية والمغرب، الأندلس، صقيلية وأقريطش) (27-719هـ/647-1319م) من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تح وتع: مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء-المملكة المغربية، 1984م، ص.318

30 - ابن خلدون، العبر، ج6، ص.207، 208----31- انظر وقارن: مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط-المملكة المغربية، ط01، 2005، ص.124؛ ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص.135

32- ابن خلدون، العبر، ج6، ص.208-209----33- البكري، المصدر السابق، ج2: 727

34 -النويري، المصدر السابق، ص.324؛ يبدو هو نفسه الداعي الذي ارسله الظاهر إلى السلطان محمود الغزنوي يدعوه سرّاً إلى مذهب الباطنية، لكن السلطان قتله، وقد ساق ابن الاثير هذا الخبر ضمن أحداث سنة 385هـ!. والاشكال الثاني يكمن في أن السلطان محمود قد حكم من 388 إلى وفاته في 421هـ. الذهبي. أبو عبد الله شمس الدين، (ت.748هـ)، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط(إشراف)، ط3، مؤسسة الرسالة، لبنان، ج17، ص.486----35- البكري، نفس المصدر، ج.2، ص.789، 797-798

36- حول ترجمته، انظر: نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر. من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان، 1980م، ص.58؛ مجموعة من الأساتذة (إعداد)، خدوسي رابح (إشراف)، ج1، موسوعة الأدباء والعلماء الجزائريين، منشورات الحضارة، 2014م، ص.53-54.----37- حول الأعلام التاهرتيين، انظر: نويهض عادل، نفس المرجع، ص.58-61

38- ابن خلدون. عبد الرحمن (ت.808هـ)، مقدمة ابن خلدون، تصحيح وفهرسة: أبو عبد الله السعيد المندوه 1/2، ط3، بيروت-لبنان، مؤسسة الكتاب الثقافية، د.ت، ص.528----39- ابن حوقل، المصدر السابق، ص.96-----40- ابن خلدون، العبر، ج6، ص.375

41- ابن الوزان الزياتي، المصدر السابق، ص.412-----42- البكري، المصدر السابق، ج2، ص.736

43- ابن حيان القرطبي، المقتبس، نشر: ب.شالميتا وآخرون، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد-اسبانيا، 1979م، ج.5، ص.260

44- نفسه، ج.5، ص.326----45- نفسه، ج.5، ص.259-260----46- نفسه، ج.5، ص.301----47- نفسه، ج.5، ص.303

48- عملية التخريب هنا طالت تاهرت القديمة. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص.199----49- ابن عذاري، نفس المصدر، ج3، ص.268-----50- السلاوي: الاستقصا، ج1، ص.174؛ نقلا عن: سنوسي يوسف إبراهيم، زناتة والخلافة الفاطمية، مصر: مكتبة سعيد رأفت، جامعة عين شمس، ط1، 1986م، ص.69----51- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.107----52- نفسه، ص.109

53- نفسه، ص.121، 149----54- بوقاعدة البشير، المرجع السابق، ص.116----55- ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص.199